محمّد جواد مغنيّة: مسألة الأخلاق وقيمة الإنسان

الدكتور أحد قراملكي

تعريب: الشيخ محمّد زراقط

الكلمات المفتاحيّة: أحد قراملكي؛ محمّد جواد مغنيّة؛ الأخلاق؛ الإنسان؛ علم الكلام؛ العقل والنقل؛ الدين؛ العادات؛ التيّارات الفلسفيّة.

يحلّل الباحث في هذه الدراسة آراء الشيخ محمّد جواد مغنيّة في الأخلاق رابطًا إيّاها بعلم الكلام الجديد. بدأ الدكتور أحد قراملكي بحثه بالحديث عن حياة الشيخ، ومن ثمّ تحدّث عن منهجه، وصولًا إلى تحليل العلاقة بين الأخلاق والإنسان في فكره.

على صعيد البعد الأخلاقيّ، عالج "موقع الأخلاق وهدفها" و"الأخلاق والحياة العمليّة" و"الأخلاق والعادات" وصولًا إلى نقد المدارس الفلسفيّة الغربيّة.

أمّا على صعيد الإنسان، فقد عرض لرؤية مغنيّة للإنسان، التي تعتبر فاتحًا لعهد جديد في البحث الكلاميّ في العالم العربيّ المعاصر[1].

تمهيد

لقد أسدى الشيخ محمّد جواد مغنية[2] (1904-1970) خدمات جلّى للفكر الإسلاميّ المعاصر، عبر وروده إلى ساحات متعدّدة وميادين مختلفة، لقد فتح الشيخ محمّد جواد مغنيّة عينيه على هذا العالم في بلدة طير دبّا من قرى جنوب لبنان سنة 1904 ميلاديّة. وسافر برفقة والده إلى النجف الأشرف لطلب العلم ولم يكن عمر المترجم له في تلك الفترة يبلغ السنوات الأربع. توفّي والده وكان عمره عشر سنوات، تولّى رعايته لمدّة سنتين بعد وفاة أبيه أخوه الأكبر، بعد هذه الفترة انشغل بتحصيل العلوم التي كانت متاحة في النجف الأشرف ومنها علوم اللغة والأدب، والفقه وأصوله، والمنطق والفلسفة، ولم يكتفِ شيخنا بهذه العلوم بل

---

[1] بحث منشور في مجلّة **المحجّة** الصادرة عن معهد المعارف الحكميّة، العدد 7، صيف 2003 ميلاديّ/1424 هجريّ.

[2] يراجع للمزيد من التفاصيل: هادي فضل الله، **محمّد جواد مغنيّة: فكر وإصلاح**، (بيروت: دار الهادي، 1993 ميلاديّ).

أضاف إليها ما تيسّر له من العلوم العصريّة عبر المطالعة أو غيرها من الطرق الميسورة، ولم يكتف بالدرس بل كان إلى جانب تحصيله يترك جزءًا من وقته لتدريس العلوم التي يكتسبها.

وقضى شيخنا المرحوم جزءًا من عمره في الرحلات العلميّة والدينيّة إلى عدد من البلاد الإسلاميّة مثل: الحجاز، والعراق، وفلسطين، وإيران، ومصر، والبحرين، وسورية، وكان حاصل هذه الرحلات مجموعة من المحاضرات والحوارات مع علماء تلك البلاد وفقهائها. ثمّ طرق الشيخ مغنيّة باب التأليف في عدد من الموضوعات: الفقه، والتوحيد، والكلام، والفلسفة، والأخلاق، والتاريخ، والحديث، والجدل، والأدب، والرحلات، وغيرها من الموضوعات الوطنيّة والاجتماعيّة. وقد شهد له عدد من الفقهاء بحيازته رتبة الاجتهاد من الفقه والأصول. وشغل في مرحلة من مراحل حياته – التي كان بدأها كبائع متجوّل للكتب والحلوى أحيانًا – منصَبَ رئاسة المحاكم الشرعيّة الإماميّة.

وقد خلّف ثروة فكريّة ضخمة تربو على خمسين أثرًا في موضوعات شتّى، وأهمّ ما تركه من آثار هو: **التفسير الكاشف؛ في ظلال نهج البلاغة؛ الفقه على المذاهب الخمسة؛ فقه الإمام جعفر الصادق؛ فلسفات إسلاميّة؛ عقليّات إسلاميّة؛ علم أصول الفقه؛ الشيعة في الميزان؛ الإسلام مع الحياة؛ مذاهب فلسفيّة؛ قاموس المصطلحات الفلسفيّة؛ الوجوديّة والغثيان؛ فلسفة الأخلاق في الإسلام؛ مع بطلة كربلاء؛ المجالس الحسينيّة؛ أهل البيت: منزلتهم ومبادئهم؛ إسرائيليّات القرآن؛ نفحات محمّديّة؛ من ذا وذاك؛ الوضع الحاضر في جبل عامل**؛ وغيرها من تلك التي تتوقّف عليها حركته الفكريّة والعلميّة.

ومن هنا، حاول مغنيّة أن يؤسّس حركة التجديد الفكريّ على قواعد ثابتة بعد جهد وتأمّل فكريّ ونظريّ مضنٍ. وقد كان الشيخ مغنيّة متابعًا لسيرة أسلافه من العلماء المصلحين في مجال السياسة والاجتماع، وكان يهدف من ذلك إلى التأسيس لحركة جديدة في مجالَي السياسة والاجتماع ترتكز على الفكر النيّر اليقظ الذي يبدأ بتشخيص احتياجات العصر وينتهي إلى النظر والتأمّل في أطراف الثقافة والحضارة الإسلاميّتين.

ولقد كان الاستعمار الغربيّ وحضارته الوافدة إلى البلاد الإسلاميّة والعربيّة من أعقد المشكلات التي واجهت الشيخ مغنيّة. ولأجل حلّ هذه المشكلة والتغلّب عليها اختار طريقًا ينسجم مع المعتقدات الإسلاميّة، والتربية والعادات الاجتماعيّة السائدة ولم يكن الشيخ مغنيّة ليهادن الاستعمار أو يداريه؛ وذلك

لاعتقاده بأنّ الحرّيّة هي اللبنة الأولى في صرح الإصلاح، والخطوة الأولى في سيرته. ومن هنا، كان يرى أن لا جدوى من أيّ إصلاح ما دمنا نحمل نير الاستعمار على أكتافنا. هذا، وإنّه لم يكن ليخشى رواج علوم الغرب بين المسلمين، تلك العلوم التي تؤدّي إلى تقدّم الأمّة ونقلها من حالة الضعف إلى القوّة، ولا تتنافى في الوقت نفسه مع معتقدات المسلمين[3].

مغنيّة والمنهج

وقد جعل مغنيّة أحد همومه الأولى مواجهة الشبهات المطروحة في وجه المعتقدات الدينيّة، ولم يجد في ما كتبه علماء الكلام المسلمين إلّا المنهج الجدليّ، ومن هنا سعى لاكتشاف أجوبة جديدة تتناسب مع روح العصر وطريقة التفكير الرائجة فيه، وقد ساعده في هذه المهمّة عقل نيّر وإيمان عميق أنار له طريقه.

لقد كان يؤمن الشيخ مغنيّة – المتكلّم – بأنّ العقل والنقل يمثّلان قطبين لحقيقة واحدة؛ ولذا سعى للتوفيق بينهما وقد كان أحد وجوه التجديد عند الشيخ مغنيّة هو التوفيق بين العلم والدين، ومن هنا أكّد في أكثر من مورد على اكتساب العلوم المختلفة:

> ينشأ الحكم بوجوب تحصيل العلم من العقل العلميّ، وقد أحسن المحقّقون في علم الأخلاق وأجادوا الحديث عن فائدة العلم، فإنّه كالماء والنور والهواء؛ ولذلك لا حاجة لإثبات وجوب تحصيله ومن لا يعلم أنّ العلم أصل الحضارة[4].

أدّى هذا المنهج بالشيخ مغنيّة إلى جعل العقل حاكمًا على النقل؛ حيث لم يكن يرى في الدين مجموعة من الأحكام التي يجب قبولها والتسليم بها حتّى لو لم تكن تملك من الأدلّة ما يكفي للإيمان بها والتسليم لها، بل على العكس تمامًا، فإنّ الإسلام خاطب العقل الإنسانيّ ودعا أهل الفهم والبصيرة إلى التأمّل في آفاق الكون وأطرافه. يقول مغنيّة في مقدّمة كتابه **الإسلام والعقل**: "وفي هذا الكتاب قد أخذت على نفسي أن أتقيّد بحكم العقل لا رائد لي سواه"[5].

---

[3] محمّد جواد مغنية، **الإسلام مع الحياة**، (بيروت: دار العلم للملايين، 1979)، الصفحة 58.

[4] محمّد جواد مغنيّة، **الإسلام والعقل**، (بيروت: دار العلم للملايين)، الصفحة 11.

[5] المصدر نفسه.

وهكذا يتبيّن أنّ مغنيّة يملك نظرة تشبه نظرة الفلاسفة العقلانيّين إلى الكون، ويحكم بخضوع العالم بأسره لشريعة العقل ويمكن استنتاج هذا الأمر من إنكاره الشديد لفكرة الجبر وتأكيده حرّيّة الإرادة الإنسانيّة[6].

لقد وعى الشيخ مغنيّة تمام الوعي أنّه يعيش في عصر يعدّ عصر المواجهة الحادّة بين الإسلام والفكر والحضارة الغربيّين، ما دعاه إلى البحث عن صيغة تقرّب الفكر الإسلاميّ من العصر الحاضر ووجد في العقل والاجتهاد خير وسيلة للوفاء بهذا الغرض، أي مواجهة الفكر الإسلاميّ للتحدّيات المعاصرة. فالاجتهاد يدعو الإنسان إلى مواجهة الآخرين والعقل خير عون لفهم الآخرين لك وفهمك لهم. فإصلاح الفكر الدينيّ عند مغنيّة لا يعني سوى بذل الجهد لاستعادة قدرة المسلمين وإرادتهم للتحدّي والمواجهة.

ولا يتحقّق هذا الإصلاح عن طريق الاستسلام للفلسفة الغربيّة، أو إسقاط أفكار الأديان الأخرى وتجاربها على الداخل الإسلاميّ، بل عبر فهم الإسلام فهمًا صحيحًا وعرض العقائد الإسلاميّة بطريقة معاصرة تسمح لكلّ عاقل أن يفهمها كما هي، وهذا ما يبرّر الأهمّيّة القصوى التي أضفاها مغنيّة في كلّ كتاباته على العقل، ويتجلّى واضحًا في إصراره على عقلنة العقائد الإسلاميّة عمومًا والشيعيّة خصوصًا وهذا ما يظهر في كتبه الآتية: **الإسلام والعقل؛ الإسلام بنظرة عصريّة؛ المهديّ المنتظر والعقل؛ الإسلام مع الحياة؛ النبوّة والعقل؛ إمامة عليّ والعقل**؛ وغير ذلك.

عرف مغنيّة كيف يحقّق التواصل بين الدين والعقل بواسطة رؤى متكاملة وأكّد أنّ العقل السليم منهج: "هو المبدأ الأوّل لكلّ حجّة ودليل إليه تنتهي طرق العلم والمعرفة بكلّ شيء، [...] وأمّا هو فدلالته عين ذاته لا بسبب خارج عنه"[7].

وقد عقد مغنيّة العزم على نشر العقيدة الإسلاميّة وترويجها، وذلك بالنظر العقليّ في مفرداتها لتصفيتها ممّا يشوبها من أمور داخليّة أخذت عنوان العقيدة وهي منها براء، وهدفه من طرح أفكاره الجديدة العودة بالناس إلى أصالة الدين وصافي جوهره[8]، وهكذا بدأ مغنيّة مشروعه الفكريّ لتقديم العقيدة الإسلاميّة بلغة جديدة

---

[6] محمّد جواد مغنيّة، **تجارب محمّد جواد مغنيّة**، (بيروت: دار الجواد، 1980)، الصفحة 570.

[7] **صفحات لوقت الفراغ** (بيروت: دار الكتاب الإسلاميّ)، الصفحة 108.

[8] **تجارب محمّد جواد مغنيّة**، مصدر سابق، الصفحة 581.

ومنهج جديد. ومن هنا، يمكن عدّه أحد روّاد علم الكلام الجديد رغم عدم اهتمامه بالبعد النظريّ لهذا العلم، إلّا أنّ البعد العمليّ التجديديّ لنتاجه في مجال العقائد يُدْخله في هذا الميدان.

الأخلاق والإنسان

ومع أنّ مغنيّة عالج كلّ أصول الدين بصورة مفصّلة إلّا أنّ الحظّ الأوفى من الاهتمام حازه موضوعان مثّلا قسمين أساسيّين في كلّ مؤلّفاته وهذان الموضوعان هما: الأخلاق وقيمة الإنسان. وقد كان يؤمن أنّ الأديان السماويّة واحدة في كنهها وجوهرها أجلّ، دين الله سبحانه واحد بأصوله وأخلاقه؛ لسبب واضح وبسيط وهو أنّ مصدره واحد [...][9]. وهذا ما يبرّر اختيارنا لهذين الموضوعين للبحث عنهما في مقالتنا هذه؛ وذلك لأنّ هذين الموضوعين يمثّلان قطب الرحى لفكر مغنيّة فالإنسان الذي بذل مغنيّة الكثير للبحث عنه، والأخلاق التي يرى أنّها الوسيلة الوحيدة لسعادة الاجتماع الإنسانيّ:

> لأنّ قيمة الإنسان هي الأساس لكلّ ما له من حقوق، وما عليه من واجبات بشتّى أنواعها ولو أهدرنا قيمة الإنسان وكرامته، وافترضنا أنّه كسائر الكائنات؛ لما كان ثمّة إنسانيّة على الإطلاق، وبالتالي فلا دين ولا شريعة، ولا فنّ ولا أخلاق ولا تاريخ وتراث، ولا رابطة اجتماعيّة على الإطلاق[10].

وصفوة القول هي أنّ مغنيّة واحد من: "الّذين وردوا إلى هذه الدنيا ومنحوا الإنسان قيمته الحقيقيّة، وجعلوا كلّ شيء يشرع لخدمته وضمان سعادته"[11].

تتجلّى النزعة الإنسانيّة في فكر مغنيّة في تأكيده على حرّيّة الإنسان الذي لا يمكن فصلها عن الحياة الفرديّة بشكل من الأشكال ولا يمكن تصوّر وجود الإنسان واستمرار حياته فيما لو انفصل عن المجتمع. ومن هنا، يدعو مغنيّة الناس إلى التعاون والتكافل وترجيح نزعة الإيثار الاجتماعيّ على النزعات الفرديّة الأنانيّة.

وبالتأمّل في المجتمعات الإنسانيّة، يرى مغنيّة أنّ الإحساس الاجتماعيّ فيها لم يصل إلى الحدّ الكافي لتحقيق الأهداف المتوخّاة من الاجتماع الإنسانيّ. ولذلك يدعو الناس جميعًا إلى تحصيل العلم واكتساب

---

[9] محمّد جواد مغنيّة، **فلسفة الأخلاق في الإسلام**، دار العلم للملايين، الصفحة 219.

[10] محمّد جواد مغنيّة، **فلسفات إسلاميّة** (دار التعارف: بيروت، 1978)، الصفحة 940.

[11] أحمد أبو سعد، **تجارب محمّد جواد مغنيّة**، الصفحة 571.

التربية وبخاصّة التربية الأخلاقيّة، ويرى أنّ المنطلق الأوّل للنهوض بهذا العبء هو الأسرة، وبالتالي يؤكّد على تربية النساء وتعليمهنّ أكثر من غيرهنّ لما لهنّ من أثر على الأبناء.

إذًا، لا العقل ولا الغريزة تكفي للوصول إلى السعادة الاجتماعيّة ومن هنا على الإنسانيّة أن تبحث عن معين ثريّ بالأخلاق وتعاليم المحبّة وليس ذلك إلّا رسالات الأنبياء ووحي السماء.

على أيّ حال، فإنّ الشيخ مغنيّة واحد من الشخصيّات العلميّة المسلمة التي تركت في الفكر الإسلاميّ أثرًا لا يسمح لأيّ دارس لهذا الفكر أن يتجاهله أو يمرّ عليه دون أن يستوقفه وهذا ما دعانا إلى محاولة درسه والبحث في أفكاره.

المسألة الأخلاقيّة عند مغنيّة

لا بدّ من المرور على كتاب **فلسفة الأخلاق في الإسلام** لمن أراد فهم فلسفة الأخلاق عند مغنيّة، ولا يخفى أنّ قيد في الإسلام في عنوان الكتاب يدعونا إلى معالجة الموضوع كلاميًّا أكثر من معالجته فلسفيًّا.

يرى مغنيّة أنّ الأخلاق علم يشتغل على دراسة السلوك الإنسانيّ بالقياس إلى المثل الأعلى لوضع المعايير والمبادىء العامّة لهذا السلوك والتي تساعد الإنسان في فعله للخير وتجنّبه التورّط في مهالك الشرّ. ومعنى ذلك أنّ موضوع علم الأخلاق هو السلوك الإنسانيّ. ولا يبحث هذا العلم عن أفعال الإنسان بما لها من الغاية الجزئيّة أو ليساعد الإنسان للوصول إلى النتائج الشخصيّة لأفعاله، بل بما لهذه الأفعال من غايات عليا ومقاصد رفيعة يسير الإنسان نحو الوصول إليها.

موقع الأخلاق وهدفها

والهدف الأساس لمغنيّة من بحثه الأخلاقيّ هو تقديم تصوّر عن الخصوصيّة الأخلاقيّة والتي يمكن استنباطها من القرآن والسنّة والطبيعة الإنسانيّة، ويرى مغنيّة أنّ الحكم في مقام بيان عناصر الحياة الأخلاقيّة هو القرآن رغم الصراع بين المذاهب الأخلاقيّة. ويقول في مقام الدفاع عن الأخلاق الدينيّة والفطريّة وفي مقام الردّ على من يربط الأخلاق بالعادات والآداب:

> [...] إنّ إنكار الأخلاق جحود بالإنسانيّة وجوهرها وسموّها وأسرارها من الأساس، وكفر بالتضحية والإيثار والاستشهاد، وبالمحبّة والحنان، والعفو والصفح، واللطف والإحسان والتراحم والتعاون والإباء والعفّة وبراحة

الضمير لفعل الخير وتأنيبه وندمه على فعل الشرّ، وغير ذلك من العالم الأكبر الذي انطوت عليه نفس الإنسان [...] وأخيرًا من أنكر الأخلاق فقد حكم بنفسه على نفسه بأنّه مجرّد عن الإنسانيّة[12].

يعتقد مغنيّة أنّ علم الأخلاق من العلوم المعادية؛ وذلك لأنّه يحدّد سلوك الإنسان ويحكم عليه بالخير أو الشرّ على أساس معيار محدّد وهو يشترك في هذه الخصوصيّة مع علم الجمال[13]. وكذلك يرى أنّ العلوم المعادية لا بدّ أن تقترب من العلوم الوصفيّة؛ وذلك التباعد بين هذين النوعين من العلوم يؤدّي إلى خواء العلوم المعادية. والمراد من ذلك أنّ القواعد العامّة للسلوك في مجال الأخلاق ينبغي أن لا تكون بعيدة عن الأفعال نفسها، بل على العكس يجب أن تنشأ منها، فالخير يوجد فقط في الفعل الخيّر، وبالتالي يوجد علم الأخلاق وتتحقّق أهدافه في الأفعال أو التجارب السلوكيّة، وتعدّ هذه الفكرة من مميّزات فكر مغنيّة وخصائصه؛ حيث يرى أنّ المبادىء العامّة تتحدّد على ضوء الأفعال الأخلاقيّة.

وبعد ذلك، يتابع مغنيّة البحث عن هدف علم الأخلاق وغايته، فيقول:

أمّا الغاية على علم الأخلاق في أن يوجد مجتمع يسود فيه العدل والأمن والتعاون على صيانة الحياة من المفاسد والمظالم، ومن كلّ ما يشقيها ويرهقها والسير بها إلى الأكمل والأفضل. ومعنى هذا أنّ علم الأخلاق يتوخّى إصلاح الفرد والجماعة بملازمة الصراط المستقيم في السلوك[14].

وبشكل عامّ، فإنّ حياة الإنسان بأمسّ الحاجة إلى: التنسيق والتوازن بين المصالح الماديّة والحاجات الروحيّة[15]. هذا، ويعتقد مغنيّة، أيضًا، بوجود عوامل أخرى تتدخّل في تكوين المفاهيم الأخلاقيّة، كالنيّة التي تعطي للفعل الأخلاقيّ توصيفه:

لا أثر للعمل بلا نيّة من حيث العقوبة والمثوبة لأنّ الحساب والجزاء يرتبطان ارتباطًا بالمعرفة والحرّيّة، وحيث تنعدم الحرّيّة والاختيار تنتفي المسؤوليّة [...] إذا نظرنا إلى النيّة في ذاتها بغضّ الطرف عن علاقتها بالفعل

---

[12] محمّد جواد مغنيّة، **فلسفة الأخلاق في الإسلام**، (دار العلم للملايين: بيروت)، الصفحة 18.

[13] المرجع نفسه، الصفحة 12. وفي الأصل أرجع الكاتب إلى صفحة 18 إلّا أنّني لم أعثر عليه في تلك الصفحة وإنّما وجدت في هامش الصفحة 12 ما يشير إلى هذه الفكرة نقلًا عن آخرين. (المترجم)

[14] المرجع نفسه، الصفحة 13.

[15] المرجع نفسه، الصفحة 14.

والفاعل كان وجودها كعدمها [...] وإذا نظرنا إلى النيّة من حيث علاقتها بصاحبها كان لها شأن ووزن؛ وإن ظلّت سجينة في النفس[16].

وبشكل عامّ، يعتقد مغنيّة أنّ المبادىء العامّة للشريعة تساعد في تحديد هذه القاعدة: "لا يصلح قول إلّا بعمل، ولا يصلح قول وعمل إلّا بنيّة ولا يصلح قول وعمل ونيّة إلّا بموافقة السنّة"[17].

أ. الأخلاق والحياة العمليّة:

وصفوة القول هي: إنّ العلاقة بين الأخلاق والحياة العمليّة على درجة عالية من الوثاقة والإحكام، وعلم الأخلاق يخطّط للوصول إلى الحياة الإنسانيّة. وهذا ما تهدف إليه كثير من الفلسفات وبخاصّة فلسفة أرسطو الذي يقول في الأخلاق إلى نيقوماخوس:" ...جميع أفعالنا، وجميع مقاصدنا الأخلاقيّة يظهر أنّ غرضها شيء من الخير نرغب في بلوغه"[18].

ب. الأخلاق والعادات:

ويرى مغنيّة أنّ إبعاد الأخلاق عن الأصالة الدينيّة والفطريّة وإرجاعها إلى العادات والتقاليد يلتقي مع تشكيك السوفسطائيّين في تاريخ الفلسفة اليونانيّة القديمة؛ حيث يرى هؤلاء أنّ الأخلاق الفرديّة تختلف باختلاف الأفراد وكذلك أخلاق الجماعة تختلف من مجتمع لآخر، وقد سرى هذا التشكيك إلى عصرنا الحاضر، ويرى مغنيّة أنّ من الجهل المقاربة بين الأخلاق وبين العادات والتقاليد؛ حيث إنّ الأخلاق تستند إلى مبادئ علميّة ومناهج واضحة محدّدة بينما لا ترتكز العادات على أساس ثابت سوى التوافق الذي لا مستند علميّ أو منهجيّ له. وكذلك فإنّ الأحكام والمبادىء الأخلاقيّة تتمتّع بخصوصيّات كالعموميّة والثبات وتحقيق مصلحة الفرد والمجتمع في كلّ مكان وزمان، والقاعدة الأخلاقيّة تقوم على معيار إلهيّ وعقليّ وتنطلق منه إلى التطبيق والعمل. وأمّا العادات والتقاليد، فلها صفات جزئيّة ولا تتمتّع بالشموليّة والإطلاق بل تختلف من مجتمع لآخر ومن طائفة لأخرى، وتستند إلى العواطف والتأثّر بالأعراف، وكذلك تنقسم إلى قسمين: عادات

---

[16] المرجع نفسه، الصفحتان 123 و124.

[17] المصدر نفسه، الصفحة 127.

[18] أرسطو، **الأخلاق إلى نيقوماخوس**، ترجمة أحمد لطفي السيّد (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصريّة، 1926)، الجزء 1، الصفحتان 167 و168.

مضرّة وأخرى مفيدة نافعة. وبعض العادات هي وليدة الظروف والمصادفات بخلاف الأخلاق. وفي ختام هذه المقارنة بين العادات والأخلاق يقول مغنيّة: "[فقياس العادات] على الأخلاق أشبه بقياس اللامعقول على المعقول وعدم الالتزام على الالتزام والقيم الجاهزة"[19].

ج. الأخلاق المادّيّة:

يشير مغنيّة إلى اثنين من الفلاسفة أرجعا الأخلاق إلى غير أصلها الدينيّ والفطريّ وهما نيتشه وماركس حيث يرى نيتشه أنّه:

> لما ضاقت الأرض على المعذّبين والبائسين لجأوا إلى الحيلة وابتدعوا كلمة الأخلاق وحسن السلوك بالعدل والمساواة وأن يحبّ الإنسان لأخيه ما يحبّ لنفسه... عسى أن يتّعظ الأقوياء ويكفّوا أيديهم عن الّذين لا حول لهم ولا قوّة[20].

وقال ماركس: "أجل لا عين ولا أثر للأخلاق في الواقع. وما هي إلّا حيلة وغيلة ولكن من الأقوياء لا من الضعفاء وقد ابتدع الطغاة كلمة الوداعة والمسالمة والصبر والزهد والبعد عن المشاكل والقلاقل كيلا يتحوّل المستضعفون إلى مكافحين ثائرين على الرقّ والعبوديّة"[21].

ويوجّه الشيخ مغنيّة نقدًا حادًّا إلى من يسمّيهم بـ"فلاسفة المادّة والإلحاد" ويتّهمهم بمحاولة هدم الدين بكلّ سبيل، بل بأنّهم يريدون القضاء على وجود الإنسان لا على الدين وكفى[22]. ولذلك يهيب مغنيّة بعلماء المسلمين أن يطّلعوا على التيّارات الفلسفيّة الحديثة، وبخاصّة أولئك الّذين ينفخون في أبواق معاداة الدين والأخلاق وأهمّ هذه التيّارات – بحسب مغنيّة – هي: الوجوديّة والماركسيّة، والبراغماتيّة، والوضعيّة المنطقيّة.

ويقف مغنيّة مليًّا عند القاسم المشترك بين عدد من الفلسفات التي تؤمن بتبعيّة الأخلاق ومعاييرها للمجتمعات والأفراد، والأزمنة والأمكنة، ليردّ ذلك ويقرّر أنّ القيم الأخلاقيّة معنويّة وليست مادّيّة: "وأخيرًا

---

[19] **فلسفة الأخلاق**، مصدر سابق، الصفحة 21.

[20] المرجع نفسه، الصفحة 22.

[21] المرجع نفسه.

[22] المرجع نفسه، الصفحة 23.

هل من أحد يشكّ أنّ النزعة الإنسانيّة والأخلاقيّة لو سادت وتوطّدت أركانها، لعاش الناس كلّ الناس في أمن ورخاء وسعادة وهناء؟"[23].

د. نقد الأخلاق الوجوديّة:

يرى مغنيّة في الفلسفة الوجوديّة الملحدة فلسفة التحرّر من الدين والأخلاق ويشير إلى سارتر وهيدغر كزعيمين من زعمائها وليس هذا التصنيف أو التوصيف للوجوديّة تحاملًا عليها أو موقفًا شخصيًّا بل هو تفسير لقول سارتر: "إنّ خير الإنسانيّة هو ما يراه الإنسان أنّه خيرها... وإنّ كلّ ما تطلبه منّا الأخلاق الوجوديّة عند "سارتر" هو أن نقرّر فحسب"[24]. وهكذا يفهم مغنيّة من كلام سارتر هذا أنّ الخير والحقيقة ليس سوى ما يطلبه الإنسان ويريده.

وخلاصة موقف مغنيّة حول الوجوديّة [وهذا ما يعبّر عنه بقوله]: "والحقّ أنّ الوجوديّة ليست فلسفة أو علمًا أو مجموعة من المبادىء تهدف إلى معقول، وإنّما هي شطحة أو غلطة أو نزعة أو حيرة، والوصف الأخير بها أجدر وأليق"[25]. ويبدو أنّ معرفة مغنيّة بالوجوديّة عند سارتر ليست كاملة ومن هنا فإنّ موقفه من الأخلاق عنده ليس بالمستوى المقبول.

هـ. نقد الأخلاق الماركسيّة:

أمّا الماركسيّة، فإنّها فلسفة المادّة والإنتاج – عند مغنيّة – والإنسان نفسه نتاج الطبيعة وجزء لا يتجزّأ منها. وحتّى عقل الإنسان وإرادته وجميع ما فيه من غرائز وملكات هي من عوارض المادّة وخواطرها وإذا كان الإنسان مادّة في مادّة فقيمه بكاملها مادّيّة أيضًا. وعلى ضوء الوقوع في أسر المادّة والمادّيّات توصّل المادّيّون إلى إنكار كلّ معنويّ حتّى الله[26].

---

[23] المرجع نفسه، الصفحة 52.

[24] المرجع نفسه، الصفحة 38.

[25] المرجع نفسه، الصفحتان 39 و40.

[26] المرجع نفسه، الصفحة 47.

وإنّ الإنسان عند ماركس هو الذي يسعى بالعلم والعمل لتطويع الطبيعة وإخضاعها لسيطرته وبهذا يمتاز عن الحيوان. أمّا الإنسان بغرائزه وإرادته ونزوعه إلى الحبّ والعواطف فلا مكان له في فلسفة ماركس[27].

وفي ردّه على الماركسيّة يوجّه إليها سؤالًا إشكاليًّا يقول فيه: إذا كان عقل الإنسان وفهمه ومشيئته وصفاته المعنويّة لحبّه للخير والحقّ، وعفّته ونزاهته وتواضعه... مادّة أو مادّيّات فمن أين جاءته هذه الخصائص التي تميّزه عن غيره من المخلوقات؟!

ويجيب في ختام نقده للفلسفة الماركسيّة قائلًا: "[لا أحد] يستطيع العيش والحياة بلا دين وأخلاق ولا قيود وحدود على الإطلاق أبدًا حتّى من ينكر الأخلاق يحرص كلّ الحرص على حرّيّته وكرامته"[28]... وعلى أيّ حال يرى مغنيّة أنّ الموجود أعمّ من المحسوس وأوسع، وهذا الأمر أقرب ما يكون إلى البديهيّات.

و. نقد الأخلاق البراغماتيّة الوضعيّة:

ويتعرّض مغنيّة بالنقد للفلسفة البراغماتيّة في مجال الأخلاق فيرى أنّها تقوم على جعل المنفعة معيارًا للحقيقة حتّى لو أدّى ذلك إلى الإضرار بالآخرين، وهذا يبرّر اللصوصيّة وقطع الطرق وغيرها ممّا يعود بنفع على الفاعل. يقول مغنيّة:

> البراغماتيّة [كذا] في أساسها مذهب أو نزعة عمليّة تقيس كلّ فكرة وعقيدة بالمنفعة الشخصيّة وبخاصّة المال، فلا علم وصواب، ولا دين وأخلاق، ولا خير وعدل إلّا ما يجلب للإنسان نفعًا خاصًّا أو يدفع عنه ضرًّا... وأيضًا فعن هذا أن تسود الفوضى وشريعة الغاب...[29].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ صدق المعتقد الدينيّ أو الأخلاقيّ عند البراغماتيّة منوط بالمنفعة العمليّة التي يؤدّيها للإنسان؛ أي أنّ كلمة "الحقيقة" عندهم كلمة خاوية لا معنى لها وتكتسب معناها بقدر ما تحقّقه من مصلحة للفرد أو للمجتمع. وهكذا نلاحظ أنّ البراغماتيّة تلاحظ في تقييمها للمعتقدات مصالح الأفراد والمجتمع على حدّ سواء[30]، لا كما حاول مغنيّة أن يتّهمها بالجنوح نحو مصلحة الفرد على حساب مصلحة

---

[27] انظر، المرجع نفسه، الصفحة 49.

[28] المرجع نفسه، الصفحتان 51 و52.

[29] المرجع نفسه، الصفحة 46.

[30] انظر، **الموسوعة الفلسفيّة المختصرة**، مجموعة من الباحثين، مراجعة زكي نجيب محمود (بيروت: دار القلم)، الصفحات 201 إلى 206.

المجتمع. وينبغي أن نشير إلى موقف مغنيّة من الأخلاق عند مذهب الوضعيّة المنطقيّة[31]. يرى أصحاب هذا الاتّجاه أنّ القضايا إمّا تحليليّة كقضايا الرياضيّات وملاك صدقها مطابقتها للفكر أو النفس، وإمّا تركيبيّة ملاك صدقها مطابقتها للواقع كقضايا العلوم التجريبيّة وما سوى هذين النوعين من القضايا أقرب إلى العواطف منها إلى المعرفة، وبالتالي لا معنى لها لتوصف بالصدق أو الكذب.

وعلى ضوء هذا المنطلق المعرفيّ، أخرج الوضعيّون المنطقيّون القضايا القيميّة من دائرة البحث العلميّ؛ وذلك لأنّ القضايا التي تتحدّث في مجال الحقّ والخير والجمال عن "ما يجب" لا يمكن إخضاعها للتجربة الحسّيّة

> وهكذا الفلسفة الوضعيّة ينبغي أن تحلّل الألفاظ ثمّ تسجّل وتعلن أنّ أيّة [أيّ] عبارة لا تحكي عن معنى في عالم المادّة فهي لغو وعبث. والقيم الأخلاقيّة من هذا النوع لأنّها ليست مادّيّة يمكن أن تدرك بالحسّ، وكذلك القيم الدينيّة[32].

يقول مغنيّة في معرض ردّه لنسبيّة الأخلاق في مذهب الوضعيّة المنطقيّة:

> يجب – على المناطقة الوضعيّين – أن لا يوجد في الدنيا صالح وفاضل حقًّا وواقعًا حتّى ولو ملأ الأرض قسطًا وعدلًا... وأيضًا يجب أن لا يوجد شرّير وفاسد حتّى ولو سعى في الأرض فسادًا وأهلك الحرث والنسل؛ لأنّ الخير والفضيلة والشرّ والرذيلة كلام فارغ من المعنى[33].

و"ولا هدف للوضعيّة المنطقيّة إلّا القضاء على الدين والأخلاق وإعلان الحرب على كلّ ما يمتّ إلى الإنسانيّة بصلة"[34]. وهكذا يدعو مغنيّة إلى ضرورة إعادة النظر في هذا التيّار الفلسفيّ حتّى يتّضح كذب دعاويه وزيفها.

---

[31] الوضعيّة المنطقيّة حركة ابتدأتها مجموعة من الفلاسفة أطلق عليهم حلقة فيينا (1931) ويغلب على هؤلاء الاهتمام بفلسفة العلم، ويرون أنّ ما لا يثبت بالتجربة لا معنى له، وحاصل هذا المذهب أنّه استبدل الفلسفة بالتحليل اللغويّ. لمزيد من الاطّلاع، انظر، المرجع نفسه، الصفحات 537 إلى 547.

[32] **فلسفة الأخلاق في الإسلام**، مصدر سابق، الصفحة 42.

[33] المرجع نفسه، الصفحة 45.

[34] المرجع نفسه، الصفحة 42.

خلاصة رأي مغنيّة في هذه الفلسفات الأربع

1- الوجوديّة الملحدة: تؤمن بأنّه يحقّ للإنسان أن يفعل ما يشاء بشرط أن لا يتصادم بذلك مع حرّيّة الآخرين.

2- الماركسيّة: المجتمع – في هذه الفلسفة – هو الذي يحدّد طبقيّة الإنسان، وتأخذ إنتاجات الإنسان دور المعبود.

3- البراغماتيّة: لا تقبل هذه الفلسفة الفضيلة والخير إلّا إذا أدّى إلى منفعة شخصيّة ولو على حساب الآخرين والإضرار بهم.

4- الوضعيّة المنطقيّة: ترى أنّ القيم الأخلاقيّة والدينيّة ما هي إلّا حديث خرافة وكلام لا معنى له.

وعلى ضوء هذه الرؤية يتّضح اختلاف نظرة هذه المذاهب إلى الأساس الذي تعتمد عليه الأخلاق وكيفيّة ارتباط هذا العالم بحياة الإنسان:

فبعضها يرى أنّه علم عمليّ غايته تحقيق أغراض الإنسان وأهدافه في الحياة.

وبعضها يرى أنّ علم الأخلاق نظريّ لا علميّ.

ولكن كلا الفريقين يرى أنّ علم الأخلاق من العلوم المعياريّة التي تترك بالضرورة أثرها على حياة الإنسان بصرف النظر عن الغاية التي تصبو إلى تحقيقها.

الأخلاق النظريّة والأخلاق العمليّة

لقد خلط مغنيّة بين هاتين الجهتين وآمن بأنّ الأخلاق علم نظريّ وعمليّ في آن معًا، فهذا العلم عبارة عن بحث وتحقيق عقليّ يهدف إلى فهم مجموعة من المبادئ السامية التي ينبغي تطبيقها في حياتنا اليوميّة. وبعبارة أخرى الأخلاق علم وفنّ في آن ومخطئ من يعدّها أحد الأمرين فقط. ولعلّ مغنيّة يريد أن يقول: إنّ الأخلاق النظريّة لا تشتمل على المعارف النظريّة فحسب، ومن جهة أخرى، فإنّ الأخلاق العلميّة التي موضوعها السلوك الإنسانيّ هي المضمون الحقيقيّ للأخلاق النظريّة، والعلاقة بين الاثنين تشبه، تمامًا، العلاقة بين أعضاء جسم الإنسان والوظائف التي تؤدّيها، فكما أنّ الأعضاء ليست مظاهر لجمال جسم الإنسان وتناسبه

فكذلك الأخلاق ليست معرفة نظريّة مجرّدة بل هي مؤشّر وكاشف عن السلوك الذي تتجلّى فيه وتنتهي إليه. يقول مغنيّة في هذا المجال:

> والخلاصة إنّ العلم النظريّ للأخلاق مجرّد معرفة والعلم العمليّ سلوك، والصلة بينهما، تمامًا، كالصلة بين اليد والعمل بها، وبين العين ورؤية الطريق. وكما أنّ كلًا من اليد والعين ليست لمجرّد الجمال والتناسب بين الأعضاء، كذلك المعرفة ليست لمجرّد الترف وتراكم الصور الذهنيّة، بل للعمل من أجل الحياة الطيّبة الخيّرة التي يوحي بها الحبّ والعدل، ويهدي إليها الوحي والعقل[35].

وعلى أيّ حال، يوافق مغنيّة على تقسيم الأخلاق إلى: نظريّة وعمليّة. الأخلاق النظريّة وهي ما يسمّى بـ"فلسفة الأخلاق" يبحث فيها عن المبادئ الأوّليّة السامية للسلوك، ولا يهتمّ هذا العلم بكيفيّة تطبيق هذه المفاهيم وتحويلها إلى سلوك. ومن هنا، يعلم أنّ الأخلاق النظريّة تبحث عن المفاهيم المقلقة والكلّيّة بغضّ النظر عن مصاديقها وكما يقول مغنيّة: "موضوع علم الأخلاق النظريّ بمنزلة الجنس الذي لا يوجد في الخارج إلّا بوجود أفراده"[36].

وأمّا الأخلاق العمليّة، فيأخذ على عاتقه تحقيق الأهداف الأخلاقيّة التي يسعى الإنسان لتطبيقها في حياته اليوميّة. فيحاول هذا العلم البحث عن الوسائل التي تخدم تلك الأهداف وتؤدّي إلى تحقّقها، إذًا، يُبحث في الأخلاق العمليّة "عن مصاديق الخير التي تقع تحت الحواسّ والفضائل الخارجيّة"[37].

وصفوة القول: إنّ علم الأخلاق – بحسب مغنيّة – يشتمل على الأمور العمليّة والنظريّة في آن والقسم الأخير ليس هدفًا بحدّ ذاته بل هو أصل ومنطلق ينتقل منها الباحث إلى التطبيق والعمل: "وهذه المرحلة التطبيقيّة العمليّة هي الهدف الأسمى لعلم الأخلاق بل لكلّ علم على الإطلاق"[38].

ملاحظات واستنتاجات

---

[35] المرجع نفسه، الصفحتان 54 و55.

[36] المرجع نفسه ، الصفحة 54.

[37] المرجع نفسه، الصفحة 54.

[38] المرجع نفسه، الصفحة 54.

أ- الرجوع إلى ما سطّره مغنيّة حول الأخلاق النظريّة، نجد أنّه عالج هذا العلم من ناحية كلّيّة بغضّ الطرف عن المفاهيم والمصاديق في عالم الجزئيّات؛ وذلك لأنّ هذه المفاهيم لا تتجاوز عالم المعنى والعقل، وكشف النقاب عن الأسس الأصيلة والمبادئ الأساسيّة للفضيلة والخير المطلق وحصرها في عناصر خمسة هي: الإلزام، والمسؤوليّة، والجزاء، والنيّة، والجهد. ويؤكّد أنّ علم الأخلاق النظريّ وسيلة وأداة للعمل بما تقتضيه قواعد الأخلاق ومبادئها تمامًا كالإيمان بالنسبة للعمل الصالح. وتوقّف مغنيّة مليًّا عند كلّ واحد من تلك العناصر الخمسة. ولا مجال للمتابعة التفصيليّة لكلماته وأفكاره في هذه المقالة.

وبعد الحديث عن الأخلاق النظريّة، تابع مغنيّة بحثه عن الأخلاق العمليّة ليؤكّد أنّ هذه المبادىء النظريّة ليست أفكارًا منفصلة عن الواقع بل هي معايير وضوابط للسلوك العمليّ. ويؤمن مغنيّة أنّ الأخلاق في جوهرها هي محرّض على فعل الخير ورادع عن فعل الشرّ، وما لم يتوفّر هذان الأمران فلا أخلاق؛ وذلك لأنّ مراد الله من كلمة الحياة هذه الآية: {يا أيّها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحيكم واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه وأنّه إليه تحشرون}[39]. يتحقّق عندما يسود الأمن، والاستقرار والحرّيّة، والعدالة، والمساواة، ولا يتسنّى ذلك إلّا بالحيلولة دون الظلم والإيذاء، والشهوات والأطماع.

وهكذا يتبيّن أنّ مغنيّة قد مزج بين المثاليّة والواقعيّة، ليتحقّق نتيجة هذا الدمج هدف الأخلاق وبنيتها وليشترك في هذه العمليّة المفهوم والمصداق على حدّ سواء. وذلك لأنّه: "ليس عمل الخير والفضيلة مقتصرًا على من قرأ الأخلاق أو تخصّص بعلمه، فمن الممكن أن يكون المرء فاضلًا في أخلاقه دون أن يستطيع تعريف الفضيلة [...]"[40].

وكما أنّ الأخلاق النظريّة ترتكز على التفكّر العقلانيّ والتأمّل والمجرّد عن كلّ محسوس فكذلك الأخلاق العمليّة تستند إلى الظواهر الجزئيّة والمشاهدات الحسّيّة: "العلم العمليّ ينطلق من الجزئيّات والعلم النظريّ ينطلق من الجزئيّات"[41]. ولا يُراد من الأخلاق العمليّة تقييم السلوك بعد صدوره من فاعله: "وإنّما المراد بالأخلاق العمليّة الأحكام الفرعيّة التي تتعلّق بالعمل مثل: افعل ولا تفعل. فهي عمليّة لأنّ موضوعها نفس

---

[39] سورة **الأنفال**، الآية 24.

[40] **فلسفة الأخلاق**، الصفحة 149.

[41] المرجع نفسه، الصفحة 150.

العمل، وأيضًا، يسوغ أن نطلق عليها كلمة 'نظريّة' من حيث إنّها مجرّد تشريع وإنشاء"[42]. وبكلمة عامّة إذا كان موضوع الأخلاق النظريّة كلّيًّا وعامًّا وشاملًا، فإنّ موضوع الأخلاق العمليّة هو العمل الشخصيّ الخارجيّ.

ومع أنّ مغنيّة يرى أنّ الوحي أحد أهمّ مصادر الأخلاق بالنسبة للإنسان المؤمن بالله وبيوم الجزاء؛ ولكنّه يؤمن في الوقت نفسه بأنّ علم الأخلاق هو علم مستقلّ وليس علمًا دينيًّا محضًا. وقد أتى الإسلام ليضيف مكارمًا من الأخلاق إلى أخرى، يمكن أن يدركها الإنسان بعقله وفطرته، وتتأكّد حقيقة استقلال علم الأخلاق عندما نلاحظ أنّ فريقًا مهمًّا من المسلمين وبخاصّة الشيعة منهم يؤمنون بأنّ الحسن والقبح ذاتيّين للأفعال يدركهما العقل مستقلًّا.

أضف إلى ذلك أنّ علم الأخلاق وبخاصّة العمليّ منه، لا يقاس بغيره من العلوم بل هي تقاس به، ومن هنا، كان من العلوم المعياريّة، ومحكًّا لمعرفة الخطأ من الصواب في كلّ دين أو فلسفة ونظام فكريّ، ولأنّ المفروض في كلّ واحد من الأمور الثلاثة المذكورة أن تقوم على مبادئ إنسانيّة وفضائل عمليّة كالحرّيّة، والعدالة، وصيانة النظام، والأمن العامّ، وغير ذلك إلى كلّ ما لا بدّ منه لتحقيق حياة إنسانيّة أخلاقيّة لجميع الناس دون تمايز بينهم على أساس الجنس أو اللون أو المنصب أو الجاه[43]. "ما ينبغي أن يتحلّى بها كلّ البشر على السواء في كلّ مكان وزمان مهما اختلفت طبقاتهم وأديانهم، وطباعهم وأذواقهم"[44].

ويؤكّد مغنيّة أنّ الباحثين في علم الأخلاق كثيرًا ما تأثّروا بعصرهم الذي عاشوا فيه، وكذلك نحن مدعوون إلى ملاحظة العصر الذي نعيشه ونكتب بالشكل الذي يتناسب معه[45].

وعلى أيّ حال، يجعل مغنيّة القرآن رائدًا له في البحث عن الأخلاق العلميّة وكذلك الحقوق الطبيعيّة التي يجهد الإنسان من أجلها سواء في ذلك الفرد أم المجتمع. ويرى مغنيّة أنّ من لوازم الحديث عن الأخلاق

---

[42] المرجع نفسه، الصفحة 150.

[43] انظر المرجع نفسه، الصفحة 151.

[44] المرجع نفسه، الصفحة 155.

[45] يورد مغنيّة هذا القول في مقام انتقاده لمن يردّد في هذا العصر بعض الأخلاقيّات الجزئيّة التي تتناسب مع عصر محدّد كالحديث عن لبس العمائم والخفّ وغيرها (المترجم).

العلميّة وضروراتها التي لا تنفكّ عنها التعمّق في فهم الموضوعات المتفرّعة منها، أي وظيفة الإنسان على الأرض، وأهمّيّة العلم، والعدل، والإنسان بين بعديه المادّيّ والمعنويّ، وحفظ النفس وغيرها من العناوين التي تعرض لها ولا يسعنا استعراضها جميعًا.

قيمة الإنسان

الإنسان بحسب مغنيّة هو الموضوع الأصليّ للدين، والعلم، والشريعة، والطبّ، والأدب، والفنّ. ومن هنا، نجد أنّ موضوع الإنسان تحوّل إلى محور ينتظم كثيرًا من الأفكار التي طرحها مغنيّة، الذي يدعو الناس جميعًا على اختلاف مللهم ومذاهبهم وأماكن تواجدهم على سطح المعمورة، إلى التعاون فيما بينهم، ويدعوهم إلى تحقيق حياة آمنة خالية من العداوة، والاستغلال، والظلم، والتسلّط، والحرمان، والجوع. ويؤكّد أنّ هدف الأديان والمجتمعات ينبغي أن يكون رفع احتياجات الإنسان؛ وذلك لأنّ "الإنسان هو الغاية والقيمة العظمى"[46]. ويوضح كذلك أنّ الإسلام "هدفه سعادة الإنسان، وشعاره الحرّيّة للجميع، ومثله الأعلى المساواة بين الجميع"[47].

ويرى مغنيّة أنّ المعرفة الكاملة بالإنسان لا تتحقّق عبر العلم التجريبيّ أو العقل أو الحدس، وكلّ ما نكتسبه من معلومات حول الإنسان بهذه الوسائل ما هو إلّا بعض الخصائص نفهمها بعد المقايسة بين الإنسان وأفعاله: "إنّ أصل الإنسان محال أن يعرف بالعلم والعقل فطريق منحصر بالوحي وغير الوحي لا بدّ أن يقع في الأوهام والأخطاء ويخبط خبط عشواء كما حدث لكلّ من تكلّم عن أصل الإنسان على أساس غير الدين والوحي"[48].

هذا ولكن مغنيّة لا ينفي وجود بعض الوسائل للتعرّف على الإنسان رغم اعتقاده بعدم كفاءة الطرق التي أشرنا إليها والطريقة الوحيدة التي يرى أنّها كافية في معرفة الإنسان حقّ معرفته هي الدين والوحي وليس شيء

---

[46] انظر، **تجارب محمّد جواد مغنيّة**، الصفحة 135.

[47] **الإسلام مع الحياة**، الصفحة 22.

[48] **فلسفات إسلاميّة**، الصفحة 483.

آخر غيرهما[49]، والجدير ذكره أنّ مغنيّة يرى لزوم هذه المعرفة وضرورتها وذلك لأنّ التعرّف على الإنسان هو اللبنة الأولى في بناء شخصيّته[50].

ويسعى مغنيّة للوصول إلى ذلك عبر معرفة بعد شخصيّة الإنسان: المادّيّ والمعنويّ، ويؤكّد ضرورة تحقيق التوازن بينهما. فقد خلق الله الإنسان من المادّة والروح، وأودع في الأولى ميوله المادّيّة، وفي الثانية رؤى العقل وأبعاد الفضيلة؛ بإحدى الجهتين لصالح الأخرى. فكما أنّه لا ينبغي له الفرق في عالم المادّة وأن يضرب عرض الحائط بمعايير الحقّ والخير، كذلك لا يجوز له أن يغفل البعد المادّيّ ويتجاهله، بل عليه أن يحقّق التوازن بين المثل العليا للحقّ والفضيلة وبين ميول الجسد ورغباته.

ويعتقد مغنيّة أنّ الإنسان موجود متميّز عن سائر مخلوقات الله في أحاسيسه وعواطفه. ورغم أنّ الله قد خلق الإنسان من الذي أصل مشترك بين الأعشاب والحيوانات إلّا أنّه زوّده بقدرة العقل والحرّيّة ما جعله درّة فريدة بين الموجودات، فالإنسان بحسب مغنيّة تتحلّى بقيم سامية تحدّد له مساره في حياته وسلوكه: "وفيه من المؤهّلات الكافية الوافية لأنّ يكون أكبر مجرم يتعوّذ منه الشيطان، [...] أو ليكون ملاكًا ليس فوقه غير خالقه"[51].

تكمن قيمة الإنسان، بحسب مغنيّة، في بعده الاجتماعيّ وما يبذله للمجتمع الذي لا وجود له إلّا بوجود أفراده: "فمعنى الإنسانيّة والروحيّة أن تتلاشى أنانيّتك، تحسّ بآلام غيرك وتقدّر أتعابه، ومعنى المثل العليا أن تؤثر المصلحة العامّة على صالحك الخاصّ"، ويبلغ الحسّ الاجتماعيّ عند مغنيّة إلى حدّ يجعله يرى المجتمع ضعيفًا عندما يوجد فيه فرد واحد ضعيف: "فأيّة [فأيّ] جماعة يوجد فيها ضعيف واحد يخاف على حقّ من حقوقه فهي ضعيفة في كيانها فاسدة في أوضاعها تمامًا كالجسم إذا فسد بعض أعضائه، أو البيت إذا أنهدم [انهدم] ركن من أركانه"[52].

---

[49] انظر، **تجارب محمّد جواد مغنيّة**، الصفحة 40. لم أجد ما يشير إلى هذه الفكرة في الصفحة المذكورة (المترجم).

[50] **فلسفات إسلاميّة**، الصفحة 484. لم أجده في المصدر (المترجم).

[51] **الإسلام مع الحياة**، الصفحة 141.

[52] **تجارب محمّد جواد مغنيّة**، الصفحة 151.

ويعتقد مغنيّة أيضًا بأنّ المراد بالفرد الذي يستمدّ مصلحته من مصلحة الجماعة ويرى حياته بحياتها وكرامته بكرامتها. كما أنّ المراد بمصلحة الجماعة مصلحة جميع أفرادها لأنّ الجماعة [...] هي مجموعة أفراد"[53].

إذًا، لقد اندمجت مصلحة الفرد في مصلحة المجتمع؛ حيث إنّ إحداهما تكمّل الأخرى دون أيّ انفصال بينهما مهما كانت الظروف. وخلاصة القول: إنّ مغنيّة يعتقد بأنّ الإنسان غاية وهدف والاعتداء عليه اعتداء على الإنسانيّة وكذلك الإحسان إليه إحسان إلى الإنسانيّة، وهذا الموجود الإنسانيّة له من السمات والخصائص ما يجعله واسطة عقد الموجودات والعقل أهمّ هذه الخصائص وأفضلها، ومن مميّزات الإنسان أنّ له وجودًا جميعًا، وقد ترك له حرّيّة الاختيار والفعل، وهنا يختلف مغنيّة مع المادّيّين الّذين يرون أنّ الإنسان محكوم لنوع من الجبر التاريخيّ حدّد له مصيره، وبالتالي فهم يؤمنون —كما يرى مغنيّة – بأنّ الإنسان موجود كسائر الموجودات محكوم لمجموعة من الظروف والأوضاع الخارجة عن دائرة اختياره والتي لا يملك منها فكاكًا، وهم كذلك يرون أنّ الإنسان تمكّن في ما ينتجه فإذا زالت نتاجاته يزول بزوالها[54]. ويقول مغنيّة في هذا المجال: "فماهيّة الإنسان الكاملة الفاضلة هي الكدح في يومه، من أجل شرابه وطعامه على أن تفرض الدولة عليه نوع من الكدح والعمل، ولا يرتفع شأن الإنسانيّة بحال إلّا بزيادة الإنتاج"[55].

وهكذا نرى أنّ الصورة التي يرسمها مغنيّة للإنسان تقابل تمامًا التصوّر الذي يحمله المادّيّون عنه، أولئك الّذين يريدون للإنسان أن يعيش تحت ضغط الواقع الاجتماعيّ وأن يصرف كلّ قواه وطاقاته في العمل ليحصل في مقابل ذلك على القدر اللازم والضروريّ من احتياجاته. وكذلك تختلف نظرة مغنيّة مع النظرة الليبراليّة للإنسان، والتي تغرقه في المادّة والمادّيّات حيث يدعو مغنيّة إلى تحقيق التوازن بين البعد الروحيّ والبعد المادّيّ في الإنسان، ويرى أنّ هذا التوازن هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى السعادة. وكذلك يختلف مع كلّ الفلاسفة الّذين يرسمون للإنسان صورة لا تشبه الصورة التي يرسمها الإسلام له.

وهو بهذا التوجّه الدفاعيّ يعدّ فاتحًا لعهد جديد من البحث الكلاميّ في العالم العربيّ المعاصر الأمر الذي لم نره عند غير من المتكلّمين التقليديّين. وحاصل وجهة نظر مغنيّة عن الإنسان، هي أنّ مسؤوليّة الإنسان لا

---

[53] **تجارب محمّد جواد مغنيّة**، الصفحة 151. ويبدي مغنيّة تفاؤلًا تجاه المستقبل حيث يرى أنّ المستقبل سرف يكون لصالح الأخوّة بين الناس. انظر الشيعة في الميزان؟.

[54] **تجارب محمّد جواد مغنيّة**، الصفحة 196.

[55] **فلسفات إسلاميّة**، الصفحة 851.

تنحصر في إشباعه لميوله ورغباته المادّيّة، بل يقع على عاتقه تحقيق أهداف رسالة السماء وغاياتها ليصل إلى إنسانيّته المبتغاة ويترقّى في سلّم التكامل ليفوق سائر المخلوقات.